المحاضرة رقم 05:

فن الخطابة في النثر الجزائري الحديث

1-مفهوم الخطابة:

وجد الإنسان على وجه الأرض وهو مزود بملكة الكلام التي أوجدها له الله، وسخرها له لتسمية الأشياء والموجودات وكل ما يحيط به. وقد استطاع بعد ذلك أن يلجأ إلى اللغة التعبيرية التي من خلالها يستطيع أن يوصل أحاسيسه وأفكاره. ومنذ ظهر التعبير الفني لديه، وهو يبحث باستمرار وعلى الدوام عن اللغة التي تناسب وجدانه، وما يعتلج في صدره. ومنذ أصبحت المجتمعات البشرية تحتاج إلى لغة التخاطب، كانت اللغة الوعاء الذي يحتوي ذلك، ويمد المخاطب بما يحتاج إليه من ألفاظ ومفردات مناسبة للمقام الذي وجد فيه. «وما يمكن أن يستظهر من خلال الكتب التي تعرضت لتاريخ الخطابة هو أن هذا العلم وجد مع وجود الإنسان على هذه الأرض، أو أنه شق طريقه إلى الوجود على أيدي الأنبياء والرسل، وليس هناك مؤسس معين، أو واضع محدد له.» [1]

وكان الأنبياء والرسل يعتمدون اعتمادا كبيرا على قوة الكلام التي تؤثر في النفوس، وتستميل الناس للسير في طريق مغاير، وفي مسار قوة الكلمة، تأتي قوة الحجة والتمثيل والبرهان. وقد «اعتقد الأقدمون أن للخطابة علما، له أصول وقوانين، ومن أخذ بها، أو بعبارة أدق من استطاع الأخذ بها، والسير في طريقها – عد خطيبا. وعرفوا هذا العلم بأنه مجموع قوانين، تعرف الدارس طرق التأثير بالكلام، وحسن الإقناع بالخطاب؛ فهو يعني بدراسة طرق التأثير، ووسائل الإقناع، وما يجب أن يكون عليه الخطيب من صفات، وما ينبغي أن يتجه إليه من المعاني في الموضوعات المختلفة، وما يجب أن تكون عليه ألفاظ الخطبة، وأساليبها، وترتيبها.» [2].

[1]) إبراهيم البدوي: فن الخطابة. دار القول الثابت. ط3. 2008. ص24.
[2]) محمد أبو زهرة: الخطابة. أصولها. تاريخها في أزهر عصورها عند العرب. ط1. 1934. مطبعة العلوم. ص1.

وتأسيسا للمصطلح بناء على المنهجية العلمية، التي تؤمن بلغة العقل في وضع المصطلحات في مكانها المنوط بها، للدلالة على طبيعة الخطابة وشكلها الذي حظي باهتمام الدارسين؛ فإن «الخطابة مصدر خطب يخطب أي صار خطيبا. وهي على هذا صفة راسخة في نفس المتكلم، يقتدر بها على التصرف في فنون القول؛ لمحاولة التأثير في نفوس السامعين، وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم، وإقناعهم؛ فالخطابة مرماها التأثير في نفس السامع، ومخاطبة وجدانه، وإثارة إحساسه الأمر الذي يراد منه؛ ليذعن للحكم، إذعانا ويسلم به تسليما.» [1].

والضرورة المعرفية بالمصطلح تقتضي أن يكتمل معنى الخطابة بجمهور المستمعين الذين يتلقون كلاما. «ولهذا يجب على الخطيب أن يتجه إلى تعرّف أحوال السامعين وآرائهم السابقة ثم يقول في ذلك كلاما عاما. فهذه هي الأولى من منافع الكلام بالرأي. ثم فيها منفعة أخرى أشد خطرا. وذلك أنها تجمل الكلام خلقيا.» [2]

وفي خضم إرسال الكلام إلى المتلقي، ومراعاة المستوى العقلي والنفسي له، تبرز مهارة المتكلم في علمية التخاطب، «إن اللاتي ينبغي أن يكون القول فيهن على مجرى الصناعة فثلاث: إحداهن: الإخبار من أي الأشياء تكون التصديقات؛ والثانية ذكر اللاتي تستعمل من الألفاظ؛ والثالثة أن كيف ينبغي أن ننظّم أو ننسق أجزاء القول.» [3]. والتصديقات: كيفية الإقناع، أو كيفية وضع ما نريد في القالب اللفظي المناسب، اعتمادا على حسن التنسيق، وربط أجزاء الكلام بعضه ببعض. وفي نهاية المطاف يمكن اعتبار «الخطابة صناعة قياسية، غرضها الإقناع في جميع الأجناس العشرة؛ وما يحصل من تلك الأشياء في نفس السامع من القناعة هي الغرض الأقصى بأفعال الخطابة.» [4]. والأجناس العشر يقصد بها المقولات العشرة في الفلسفات القديمة، وهي الجوهر، والكم، والمضاف، والكيف، والأين، ومتى، والوضع، والملك، وأن ينفعل، وأن يفعل.

[1]) المرجع نفسه. ص12.
[2]) أرسطو طاليس: فن الخطابة. الترجمة العربية القديمة. تحقيق: عبد الرحمن بدوي. وكالة المطبوعات. الكويت. دار القلم. بيروت 1979. ص148.
[3]) المرجع نفسه. ص 181.
[4]) أبو نصر الفارابي: كتاب في المنطق الخطابة. تحقيق: محمد سليم سالم. مطبعة دار الكتب. 1976. ص7.

وكلما ازداد الاجتماع البشري، وكثرت مشاغله وحاجاته، كلما ازدادت الحاجة إلى من ينير لهم الدرب، ويبين لهم معالم الطريق الصحيح. ولم يكن الخطيب بمعزل عن هذا الدور الجليل. فقد كان يعلمهم شؤون حياتهم، وما يعتريها من محن وصروف. «إن الخطابة ركن عظيم من آداب الاجتماع البشري، فيها يحصل تهذيب الجمهور وحملهم على ما فيه صلاحهم، وتسكين جأشهم عند الروع، وبث حماسهم عند اللقاء، وبها تحصل مُحاجّة المموّهين عليهم والمنّتين لهم. »[1]

ومراعاة للمستوى العقلي، والنفسي للمستمع الذي قد يكون من مختلف الأعمار والتجارب، يخاطب الجمع، وتبسط له الأمور «فهي من هذا الوجه أولى باستعمال الألفاظ السهلة التناول للجمهور، مع بساطة المعاني وقلة تركيبها والإغراب فيها.» [2]

2-فن الخطابة في الأدب الجزائري:

يمكن عد مرحلة الأمير عبد القادر المنطلق الحقيقي لبروز فن الخطابة بشكل يرتقي فنيا بعدما كان هذا الفن وباقي الفنون العربية يتخبط في ظلمات عصر الضعف. ومن منطلق المحيط السياسي والاجتماعي والحضاري الذي أحاط بمسيرة النضال والجهاد ضد المستدمر الفرنسي. فإن حاجة الأمير إلى مثل هذا الفن كانت ملحة؛ لشحذ الهمم، وإيقاظ الضمائر، وتجهيز الجيش على المستوى النفسي لخوض غمار الحرب.

ومن الخطب الأولى التي يمكن أن نبدأ بها موضوعنا، خطبة علي أبي طالب عم الأمير عبد القادر. سنة 1837. وذلك بعد مفاوضات شاقة بين الأمير عبد القادر، والجنرال (بيجو) الفرنسي حول إقامة معاهدة، يمكن من خلالها إعادة ترتيب شؤون الدولة من الداخل، بعدما رأى أن بعض الجهات التي يحكمها تثير شغبا غير محمود. وفي سياق القبول والرفض من قبل بعض أتباعه، ألقى علي أبو طالب عم الأمير خطبة على أهل المجلس. قائلا بعد الحمدلة والسلام على النبي المصطفى:

[1]) الطاهر بن عاشور: أصول الإنشاء والخطابة. مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع. ط1. الرياض 1433 هـ. ص33
[2]) المرجع نفسه. ص34.

«وقد علمتم أيها السادة أنه لما تكاثرت المظالم وتواطأ العمال ومن وافقهم على ارتكاب المآثم..انتقم الرب تعالى منهم وعمنا ذلك معهم قال تعالى: ﴿واتّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيْبَنّ الذينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصّة﴾ سورة الأنفال 25. فسلط الله علينا عدو ديننا فتكالب على بلادنا، واستولى على مراسينا، واستبدل مساجدنا فيها بالكنائس وأخلاها من المُدرّس والدارس، فمرج لذلك أهل قطرنا، وضاقت بهم أرض مغربنا، واستبدلوا القصور المشيدة بخيام الشعر ومضارب الوبر، وتفرقوا أوزاغا في المواطن، وتباينوا في الموارد والمعاطن، وتغيرت الأحوال، واشتبه الممكن بالمحال، وتوالى الحل والترحال، وضعف الرجاء في أن يؤوب المسافر، ويعود الشارد النافر..» [1]. وقد اعتمدت الخطبة أسلوبا بسيطا بعيدا عن الإغراب، الخطابية القديمة المثقلة بالمحسنات البديعية. وإنما ألبسها بمسحة دينية قريبة من عقول الناس المخاطبين. وفي وضوح اللغة، وقرب المعنى، تظهر الحجة في الكلام؛ وذلك بالاعتماد على آي القرآن الكريم التي تلبي حاجة الإقناع، وترتقي بالمعاني لبلوغ المراد. كما أن عنصر الإقناع اعتمد على تحسيس الناس بسطوة المستدمر الظالم الذي لا يرأف بالبلاد والعباد، فيضع الكنيسة مكان المسجد، ويقضي على المدرّس والدارس. وهكذا تهدف الخطبة في الأخير إلى الاستنهاض، وعدم الخنوع.

وفي سياق الحرب والكر والفر، والسلم والمهادنة، كان من مثالب فرنسا نقض المعاهدات والعهود والمواثيق، أو إبطال المفاوضات إذا استشعرت الخطر من الأمير عبد القادر. ولعل فكرة المهادنة مع العدو تدخل في استراتيجية الحرب. لأن هذه الأخيرة تحتاج إلى استراحة المحارب، وإعادة ترتيب البيت من الداخل، وضبط الحسابات الدقيقة التي تبصره بحجم قوته. " وأن تجدد الحرب بينه وبين العدو يفوته إصلاح الخلل الواقع في تلك الأطراف الشاسعة، وربما اتسع الخرق وانتهى الأمر إلى ما لا خير فيه، فمنهم من بادر إلى قبوله واستحسانه ورآه من الأمور الضرورية التي لا بد منها، ومنهم من لم يقبله، ورأى أن استمرار الحرب أولى»" [2]. ويظهر رد الفعل منه مناسبا للسلوك الشنيع من فرنسا التي لا يؤتمن جانبها. وشيمتها الغدر. فصعد المنبر مخاطبا:

[1]) تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر. ج1. ط2. دار الوعي للنشر والتوزيع. الجزائر 2015. ص321.
[2]) المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

" أما بعد: فلا يخفى أن الله تعالى قال في كتابه المجيد:﴿ يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَة ﴾سورة التوبة 123. وقال:﴿ وقَاتِلُوهُمْ حَتّى لَا تَكُونَ فِتْنَة ويَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ ﴾سورة البقرة 193. وهؤلاء القوم قد عاهدناهم فنكثوا، وصدقناهم فغدروا، وصابرناهم فلم يصبروا، وإن تركناهم وشأنهم فلا نلبث أن نراهم قد فتكوا بنا على حين غفلة، وهاهم قد خدعوا الدوائر والزمالة وغيرهم من ضعفاء الدين، وحازوهم إليهم، فما الذي يمنعنا من دفاعهم ومقاومتهم ونحن موعودون بالنصر على أعدائنا، فهيا بنا أيها المسلمون إلى الجهاد، وهلموا إليه باجتهاد، وارفعوا عن عواتقكم برود الكسل، وأزيلوا من قلوبكم دواعي الخوف والوجل، أما علمتم أن من مات منكم مات شهيدا، ومن بقي نال الفخار وعاش سعيدا." [1]. ويبدأ التحفيز بالقرآن الكريم، لتحسيس الناس بعظم الأمر، وبقوة المسلم إذا تشبع بروح الإسلام، ووهب نفسه لله. ومن هنا كان أسلوب الأمير عبد القادر مركزا على فكرة استنهاض الهمم، وزرع العزيمة في النفوس، وترك الكسل والخنوع. كما أن المسلم جبل على إطاعة أمر الراعي في غير معصية، والحذر من غدر الكافر والمستبد. وبتمعن شديد لمعاني الخطبة، نجد أن الأمير ركز على أسلوب استمالة الناس الذين هم جنده في مواجهة فرنسا. مرهبا تارة، ومرغبا تارة أخرى. خاصة وأن فرنسا تستميل إليها ضعاف الدين من مرضى النفوس فتغريهم بعطائها، وتجعلهم يبيعون البلاد والعباد بثمن بخس. وهؤلاء الناس حذر منهم. " وهذا الأسلوب يؤكد أن الأمير استخدم الخطابة للتأثير وهو هدف الأدب والفن، كما أنه استخدم التعابير المنتقاة، واختار لأفكاره ألفاظا فيها من البساطة بقدر ما فيها من الإيجاز، وهي طريقة تناسب غرضه في موقفه ونظرته للمعركة." [2]

وتطور الآداب والفنون سمة ترافق كل التحولات الاجتماعية التي تمر بها الشعوب والأمم. ففي كل مرحلة يحتاج السياق إلى نمط من التعبير، يتواءم وطبيعة العقلية البشرية. " والمراحل الرئيسية التي مرت بها الخطابة هي عهد الأمير، وعهد الأشراف والمرابطين، ثم عهد المصلحين والساسة. " [3]. ومن عهد إلى آخر، يحدث التبدل والتغير في المضامين، والرؤى، والمعاني. ولا

[1]) تحفة الزائر. ص273.
[2]) عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث. ص16.
[3]) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي. ج8. 183-1954. ص104.

يمكن أن يبقى الأمر على حاله تحت ظلم السياسة الفرنسية القائمة على قمع الحريات، وتجهيل الناس، وإضعاف قدراتهم العقلية والاجتماعية. " ومنذ فاتح هذا القرن اختلطت بعض الخطب بالدروس المسجدية، وظهرت الخطبة الإصلاحية على يد الشيخ المولود بن الموهوب. وكان نادي صالح باي في قسنطينة مجالا لابن الموهوب لبث هذا النوع من الخطب التي تسمى أحيانا محاضرات بلهجة الصحف عندئذ. ومن أشهر ذلك خطبة قبوله وظيفة الفتوى سنة 1908. وقد حث فيها على التعلم واغتنام فرصة فتح المدارس الفرنسية."[1].

ولما جاءت مرحلة الإصلاح فيما بين الحربين العالميتين. كانت جمعية العلماء المسلمين على أهبة الاستعداد، والانطلاق نحو تكريس برنامج توعوي، وتربوي، وتعليمي، ينمي فكرة الاعتزاز بمقومات الشخصية الجزائرية. وقد ذاع صيت الخطب التي كانت تلقى في المساجد، والمدارس، والأندية، ومختلف المنابر المتاحة آنذاك. وظهرت ثلة من العلماء الجزائريين، الذين تجاوز علمهم حدود الجزائر قوة وتأثيرا. منهم العلامة عبد الحميد بن باديس، وهو الخطيب الهادئ صاحب الحجة والبيان. إضافة إلى الشيخ البشير الإبراهيمي الخطيب المفوّه، صاحب اللغة القوية، والبلاغة المؤثرة. والشيخ العربي التبسي، والطيب العقبي، ومبارك الميلي، والفضيل الورتلاني، وغيرهم كثير...وكانت تقال الخطب العصماء التي تشهر الفساد وتفضحه، وتدافع عن أسس الدين السليم وتحارب الطرقية والدروشة وعبدة الأضرحة التي صنعتها فرنسا. وتنافح عن المرأة، وتحارب السفور. وتدعو إلى تجنب الزواج من الأجنبيات لأنه مشروع فرنسي لتدمير الشخصية الوطنية الجزائرية. كما تدعو إلى الانفتاح على قضايا الشعوب العربية والإسلامية لمد روابط الأخوة، والتلاحم، والتآزر. وفي ذلك خطبة للشيخ ابن باديس في ذكرى وفاة الشاعرين العربيين الكبيرين شوقي وحافظ:

« أيها السادة:

إننا باحتفالنا هذا بذكرى شاعري العربية العظيمين شوقي وحافظ، نكرم سبعين مليونا من أبناء العربية الذين يعدون العربية لغتهم القومية. ونكرم خمسمائة مليون من أبناء الإسلام الذين

[1]) المرجع نفسه. ص107.

يعدونها لغتهم الدينية ونكرم الأمم المتمدنة جمعاء التي يعترف أكابر علمائها المنصفين بمزية اللغة العربية التاريخية على العلم والمدنية.» [1]. وهكذا استطاعت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أن ترسخ قدمها في ساحة العرب والمسلمين بمثل هذه السلوكات المحمودة.

وكم تأزم علماء جمعية الإصلاح حين وفاة العلامة ابن باديس. وفي ذلك خطبة للشيخ العربي التبسي في الذكرى الثانية لوفاته:

«إن الرجال لا تسجل أنسابهم ولا صورهم ولا أموالهم في سجل الإنسانية وشرائعها ورجالها، وإنما تسجل عقائد الذين غرسوا عقائدهم في نفوس الناس. وإنما تسجل أعمال الذين أخرجوا الناس من فوضى اجتماعية إلى نظام اجتماعي توارثته الإنسانية بعدهم. إنما تسجل عبقرية أولئك الذين حاموا على الإنسانية حين امتهنت واعتدى عليها فراعنة العنصرية، وجبابرة القوة المادية، وإنما تسجل المبادئ التي تفيئ إلى ظلها الإنسانية حين تطغى على الإنسانية الجوائح التي تجتاح الناس بسوط عذابها ولهيب نيرانها.»[2]. وهذه صفات العالم حقا. وكم أحسن علماء هذه الجمعية في إيجاد التعابير التي تليق بالشخصيات الكبيرة المؤثرة.

ونخلص في الأخير إلى تبيان أهم خصائص فن الخطابة في النثر الجزائري من خلال هذه الأمثلة التي أوردناها:

- اعتماد بساطة اللغة التي تراعي مستوى الناس. وذلك حسب السياق الذي قيلت فيه الخطبة.
- الابتعاد عن الغرابة اللفظية في كثير من الحالات.
- اعتماد اللغة التي تؤثر وتستميل النفوس.
- بناء الخطبة على أفانين الحجة، والاستدلال، والبرهان، بغرض الإقناع.

[1]) عبد الحميد بن باديس: الآثار. المجلد الثاني. إعداد وتصنيف: عمار طالبي. دار الوعي للنشر والتوزيع. ط6. الجزائر 2016. ص534.
[2]) العربي التبسي: الأعمال الكاملة. جمع وإعداد: أحمد شرفي الرفاعي. دار اليمن للنشر والتوزيع والإعلام. د.ت. 255.